قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
أكتوبر – نوفمبر ٢٠١٦م
الحلقتان ١٦، ١٧

الخطيئة الأصليَّة

الحديث عن معموديَّة الأطفال، يقودنا أيضاً للحديث عن الخطيئة الأصليَّة، أو التي نسميها الخطيئة الجديَّة، ذلك التَّعبير الذي ورد بكثرة في اللاَّهوت اللاَّتيني وعند الكتَّاب اللاَّتين ولاسيَّما القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م). أمَّا مفهومه ومعناه وإن لم يغب في الكنيسة الشَّرقيَّة وعند الكتَّاب اليونانيِّين، إلاَّ أنَّه لم يكن يمثِّل لديهم تلك الأهميَّة، وذلك الضَّوء المبهر، الذي سُلِّط عليه في الكنيسة الغربيَّة.

يفهم كلُّ آباء الكنيسة الشَّرقيَّة في الشَّرق المسيحي هذه الوراثة على أنَّها وراثة للموت والفساد أكثر من كونها وراثة للذَّنب. فالذَّنب – في مفهومهم – هو نتيجة فعل شخصي، يرتكبه الشَّخص بكامل حريَّته. وهو ما يسير جنباً إلى جنب مع رؤيتهم للخلاص، على أنَّه نُصرة للحياة على الموت، أكثر منه كفَّارة قانونيَّة للخطيئة، فالخوف من الموت هو الوجه الآخر للافتخار بالحياة.

وهناك إشارات في كتابات الآباء الرَّسوليِّين (القرن الثَّاني الميلادي)، عن منشأ الخطيئة، وذلك ضمن تعبيرات عامة في معظمها. فالبشريَّة خاطئة وجاهلة وفي حاجة إلى خلاص، ولكن الآباء الرَّسوليِّين لم يولوا اهتماماً لكيفيَّة وصول البشريَّة إلى هذه الحالة. ذلك لأنَّ موضوع خطيئة آدم وانتقال هذه الخطيئة أو آثارها إلى الأجيال التَّالية، لم يظهر كموضوع ذي شأن، ولا كان مجالاً للجدال حتى بداية القرن الخامس.

فعندما ذكر القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م) نشأة الخطيئة وأسبابها المباشرة، أرجعها عادة إلى نشاطات الشياطين، وفي غير ذلك كان يقرِّر مسئوليَّة الإنسان المباشرة عن الخطيئة. ويبدو واضحاً في حواره مع تريفو (٤:٨٨) أنَّه ليس له أيُّ اتجاه فكري لموضوع وراثة الخطيئة. ولسنا نجد عند القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) أيَّة إشارة إلى وراثة للخطيئة.

ومنذ القرن الثَّالث الميلادي، ظهر مفهوم وراثة الخطيئة الجديَّة أوَّلاً في الإسكندريَّة على يد العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، ومن بعده العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، وكذلك من شمال إفريقيا بواسطة العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، والقدِّيس كبريانوس (+٢٨٥م)، وإن لم يكن يحمل ذات هذا التَّعبير "الخطيئة الجدَّية" بالذَّات.

ففي الإسكندريَّة، ميَّز العلاَّمة كليمندس الإسكندري – كبقيَّة المؤلِّفين اليونان – بين الصُّورة والمثال. وأنَّ الإنسان مدعو ليكون شريكاً في خلاص نفسه عن طريق ممارسة حريَّة إرادته (المتفرِّقات ٦:١٢، ١٩). فالخطيئة هي حريَّة شخصيَّة وفعليَّة. ولكن مع ذلك، ففي كتاباته إشارات عن الاشتراك مع آدم في خطيئته.

أمَّا العلاَّمة أوريجانوس، ففي حديثه عن التَّطهيرات في معرض تفسيره لسفر اللاويِّين يقول:

> [يظهر أنَّه بواسطة الميلاد الجسداني، تأخذ كلُّ نفس صبغة الخطيئة والإثم ... وإلاَّ فلماذا يلزم أن تُمنح المعموديَّة لغفران الخطايا ضمن ممارسة طقسيَّة في الكنيسة حتى للأطفال الصِّغار؟ فبدون شك، إن لم يكن هناك شيءٌ في الأطفال الصِّغار يحتاج إلى عفو وغفران، فإنَّ نعمة المعموديَّة تصبح ليست بذي قيمة].

وفي تفسيره لرسالة رومية (٥:١٢-٢١) يقول:

[لأنَّ كلَّ البشر كانوا في صُلب آدم عندما كان في الفردوس، وعندما طُرد منه. وهكذا فإنَّ الموت الذي جناه آدم في معصيته، قد انتقل بواسطته إلى جميع هؤلاء الذين في دمه. وهذا ما قاله الرَّسول: «كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع» (١كورنثوس ١٥:٢٢)][1].

إنَّ المعموديَّة لا تقتصر في مفعولها على محو الخطيئة فحسب، ولكنَّها تلد في المعمَّد الإنسان الجديد، ليصير أهلاً لحلول الرُّوح القُدُس فيه، فينال المعمَّد قوَّة إلهيَّة تعينه في جهاده ومناهضته للخطيئة بمعناها الشَّامل. لأنَّه ماذا تكون الخطيئة الجديَّة إزاء الرَّذائل وأعمال الانحلال، والشَّك وعدم الإيمان، والبُغضة وضيق الصَّدر، والغضب والكبرياء، والكآبة والحُزن، ونقص المحبَّة وفقدان الرَّجاء؟

أمَّا في شمال إفريقيا، فبرغم أنَّ ترتليان قرَّر حريَّة الإرادة الشَّخصيَّة في اقتراف الخطيئة، إلاَّ أنَّه يؤكِّد على أنَّ خطيئة آدم قد شملت كلَّ البشريَّة، والميل نحو الخطيئة النَّاتج عن ذلك، وعبَّر عن هذا بقوله:

[كلُّ نفس هي غصنٌ صغيرٌ، اقتطع من الجزع الأصلي لآدم، وزُرع كشجرة مستقلَّة، وعلى هذا فالشَّر الذي يوجد في النَّفس هو شيءٌ له أصلٌ سابقٌ، لأنَّنا أُخذنا من أصلنا المخطئ، وأصبحنا في طريق حتمي مرتبط بأصل طبيعتنا، لذلك سبق أن قرَّرتُ أنَّ الطَّبيعة الفاسدة هي طبيعة ثانية. وفوق ذلك، فإنَّ كلَّ نفس تُعتبر وكأنَّها موجودة في آدم حتى أنَّها في المعموديَّة تتطهَّر من وسخها، وتولد ثانية في المسيح] (على النَّفس ٣٩:٤١، ٤١:١١، ١٩).

وهذا ما دعا بعض اللاَّهوتيِّين المعاصرين إلى افتراض أنَّ ترتليان كان في ذهنه شيءٌ ما مشابه للخطيئة الجدَّية، خاصة وأنَّه يبدو غير مميِّز بين حالة الخطيئة النَّاتجة عن الخطايا الشَّخصيَّة التي ارتُكبت بالفعل، وبين حالة خطيئة موروثة.

وهناك برهانٌ آخرٌ يتَّصل بموقف ترتليان الذي رفض معموديَّة الأطفال، والتي اعتبرها مدخلاً غريباً وغير مألوف فيقول:

[لماذا يجب على الطُّفولة البريئة أن تأتي بمثل تلك السُّرعة إلى ترك الخطيئة؟ دعهم يأتون بينما هم يبلغون النُّضوج، ويتعلَّمون ما سيأتون إليه (أي المعموديَّة). دعوهم يكونون مسيحيِّين عندما يكونون قادرين على معرفة المسيح] (مقالة على المعموديَّة ١٨:٥).

يتَّضح ممَّا سبق، مفهوم ترتليان عن الخطيئة الجديَّة دون الإشارة إليها بذات هذا التَّعبير، لاسيَّما عندما يدعو آدم كأصل جنسنا، وخطيئتنا (على العفَّة ٢:٥). وإنَّ موقفه تجاه معموديَّة الأطفال، يشير إلى أنَّه كان يعتبر الخطيئة الجدَّية شيئاً غير ذي بال بالنِّسبة لهم.

أمَّا القدِّيس كبريانوس الشَّهيد (+٢٨٥م) أُسقُف قرطاجنَّة، فلم يتطرَّق إلى هذا الموضوع بنفس الاستفاضة التي عرض لها ترتليان، وربما يكون الاختلاف بينهما هو في التَّشدُّد الذي قاد ترتليان إلى المونتانيَّة. ولا ينبغي أن نغفل أنَّ مفهوم الخطيئة الجديَّة ظلَّ متأصِّلاً في كنيسة شمال إفريقيا، حتى أنَّنا نقرأ في القانون (١١٠) لمجمع قرطاجنَّة المنعقد سنة ٤١٩م والمعروفة قوانينه باسم ''مجموعة القوانين الإفريقيَّة'' ما نصُّه: ''إنَّ كلَّ من ينكر أن يُعمِّد الأطفال المولودين حديثاً، وكلَّ من يقول إنَّ المعموديَّة هي لغفران الخطايا، وإنَّ الأطفال لا يرثون من آدم الخطيئة الجدَّية التي تحتاج إلى التَّنقية بحميم الولادة الثَّانية، ويستنتج من ذلك أنَّ رسم المعموديَّة لغفران الخطايا للأولاد هو رسمٌ باطلٌ لا حقيقيٌ، فليكن محروماً''. ممَّا يتَّضح معه أنَّه كانت هناك مقاومة لمفهوم ''وراثة الخطيئة الجدَّية''، وكان على المجمع أن يضع قانوناً للتَّصدي لها.

أمَّا عند آباء القرن الرَّابع، فالبابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، كان اهتمامه الأوَّل هو خلاص كلِّ البشر الذين ساد عليهم الفساد، وحُكم عليهم بالموت بسبب عصيان الوصيَّة (تجسُّد الكلمة ٢:٥ ؛ ٤:٤).

وأمَّا عن خطيئة آدم فيقول:

---

[1] *PG* 14, 1010.

[قدَّم (المسيح) ذبيحة نفسه عن الجميع إذ سلَّم هيكله للموت عوضاً عن الجميع، لكي يحرِّر البشر من المعصية الأولى (أو الأصليَّة) τῆς ἀρχαίας[٢] παραβάσεως][٣].

[لأنَّ آدم حينما تعدَّى، بلغت الخطيئة ἡ ἁμαρτία إلى كلِّ إنسان][٤].

لم ينشغل البابا أثناسيوس الرَّسولي بالخطيئة الأصليَّة – كما فعل القدِّيس أغسطينوس – قدر انشغاله بالخلاص الذي قدَّمه المسيح للعالم. فماذا يهم إنْ تصارعنا على وجود ما يُسمَّى ''الخطيئة الجدَّية'' أو عدم وجودها، ألم يُصبح الخلاص الذي قدَّمه المسيح لنا خلاصاً من كلِّ أنواع الخطايا؟

أمَّا القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) فيشير إلى الخطيئة الجدَّية في حديث عابر، فيقول: إنَّ الموت هو النَّتيجة العامة لسقوط آدم، والخطيئة مرتبطة بالموت. أمَّا موضوع انتقال الخطيئة من آدم إلى نسله فقد تُرك بدون فحص، ويرى أنَّ فساد الإنسان غالباً ما يكون بسبب خطاياه الشَّخصيَّة، والتي تُغفر في المعموديَّة.

وبين الآباء الكبادوك، نجد أنَّ الخطيئة الجدَّية غير واضحة في عقيدة القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م). إلاَّ أنَّها واضحة تماماً عند أخيه القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٠-٣٩٥م)، فهو أقرب الآباء الشَّرقيِّين إلى أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)، ذلك لأنَّ المكوِّنات الأساسيَّة لمبادئ أغسطينوس اللاَّهوتيَّة موجودة في أنثروبولوجيا غريغوريوس النِّيسي. أمَّا القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَات (٣٢٩-٣٨٩م) فهو واحد من الآباء الذين تكلَّموا عن عقيدة وراثة الذَّنب، إلى جانب وراثة الفساد والموت.

وفي القرن الخامس، يرى القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) أنَّ عقيدته عن الخطيئة الجدَّية، هي امتداد للتَّقليد الكنسي، ليس فقط في قانون الإيمان، ولكن في الأسفار المقدَّسة أيضاً. وقد أورد خمسة شواهد كتابيَّة لإثبات ذلك، اثنان منها من العهد القديم، وثلاثة من العهد الجديد، وأوضحها على الإطلاق، نجدها في رسالة رومية. وهذه الشَّواهد هي:

- «ها أنذا بالإثم صُوِّرت وبالخطيئة حبلت بي أمي» (مزمور ٥١:٥).
- «من يُخرج الطَّاهر من النَّجس. لا أحد»، «أصُوِّرتُ أوَّل النَّاس أم أُبدئتُ قبل التِّلال» (أيوب ١٤:٤، ١٥:٧).
- «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الرُّوح هو روح» (يوحنَّا ٣:٦).
- «الذين نحن أيضاً جميعاً تصرَّفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار، وكنَّا بالطَّبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً» (أفسس ٢:٣).
- «من أجل ذلك كأنَّما بإنسان واحد دخلت εἰσῆλθεν الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز διῆλθεν الموت إلى جميع النَّاس إذ (الذي به ἐφ᾽ᾧ) أخطأ الجميع» (رومية ٥:١٢).

وبرغم أنَّ القدِّيس أغسطينوس اقتبس على الأقل ثماني مرَّات من عظة القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في تفسيره لرسالة رومية (٥:١٢-٢١)، ليؤكِّد عقيدته عن الخطيئة الجدَّية، إلاَّ أنَّ ذهبي الفم لم يقرِّر بوضوح أنَّ الخطيئة نفسها قد ورِّثت من خلال التَّناسل، وأنَّها أصبحت مغروسة في طبيعتهم[٥]. إذ كان ذهبي الفم يؤكِّد مراراً أنَّ الموت وليس الخطيئة، هو الذي انتقل كميراث من آدم[٦].

---

[٢] الخطيئة الجدَّية أو الأصليَّة، تُسمَّى προπατορική = original sin
Lampe, GWH, *A Patristic Greek Lexicon*, Oxford, 1961, p. 1162.

[٣] تجسُّد الكلمة ٢:٢٠

[٤] مقالات ضدَّ الأريوسيِّين ٥١:١
وقد جرى تعديل لهذه الجزئيَّة، خلافاً لما ورد فيها في الطَّبعتَين السَّابقتَين.

[5] *Quasten* 4, p. 478.

[٦] نلاحظ هنا أنَّ القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) لا يخرج عن نصِّ رومية (٥:١٢) الذي يقول: 'إنَّ الموت هو الذي اجتاز إلى جميع النَّاس إذ (أي: الذي به، أي بالموت، وذلك بحسب التَّرجمة الحرفيَّة للنَّص اليوناني) أخطأ الجميع'. والذين يدافعون عن عدم انتقال ما يُسمَّى ''الخطيئة الجدّية'' إلى نسل آدم، يقولون: إنَّ التَّرجمة اللاَّتينيَّة التي اقتبس منها أغسطينوس شواهده – وهي التَّرجمة التي ظلَّت مقرَّرة في الكنيسة

أمَّا القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) فيقول في ذلك:

[كيف جُعل الكثيرون خطاة من خلاله؟ لماذا وقع عصيانه علينا؟ وكيف أنَّ كلَّ هؤلاء الذين لم يولدوا يُحكم عليهم فيه؟ فلدينا هذا القول الإلهي: «لا يُقتَل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء. كلُّ نفس بخطيئتها تُقتل» (تثنية ١٦:٢٤) فما هو التَّفسير لذلك؟

أليس حقًّا أنَّ النَّفْس التي تخطئ هي نفسها التي تموت؟ لأنَّنا جميعاً خطاة من خلال عصيان آدم. فقد جُبل آدم أوَّلاً على الحياة وعدم الفساد، والأكثر من ذلك، فإنَّ الحياة التي عاينها في فردوس النَّعيم، هي تلك التي تناسب القدِّيسين، إذ كان عقله يُختطف دائماً في رؤية الله، وكان جسده في هدوء كامل، لأنَّه لم يكن في داخله قابليَّة للدَّوافع الغريبة. ولكنَّه حينما تعرَّض للسُّقوط في الخطيئة وغاص فيها حتى وصل إلى أعماق الفساد والموت، من هذا الوقت فصاعداً، بدأت الشَّهوات غير الطَّاهرة مهاجمتها للطَّبيعة الجسديَّة، وبدأ ناموس الخطيئة ينشب أظافره في أعضائنا. ولذلك فالطَّبيعة البشريَّة احتضنت مرض الخطيئة من خلال عصيان إنسان واحد هو آدم. وبهذه الطَّريقة أصبح الكثيرون خطاة، ليس هكذا بتعدِّيهم الفعلي - لأنَّهم لم يكونوا قد وُجدوا في الحياة الفعليَّة بعد - ولكن إذ صار لهم نفس الطَّبيعة البشريَّة، سقطوا تحت ناموس الخطيئة مثل آدم ... وهكذا نمت الطَّبيعة البشريَّة ضعيفة وقابلة للفساد في شخص آدم بسبب فعل المعصية، وهكذا دخلت في معاناة الآلام ... ولكن في شخص المسيح، نالت البشريَّة حريَّتها، وصارت مطيعة لله الآب، و لم تعُد ترتكب خطيئة][٧].

وهنا لا يخرج القدِّيس كيرلُّس الكبير عن قول القدِّيس بولس الرَّسول في رومية (١٢:٥) مع توضيح وشرح. وهو يشير إلى خطيئة انتقلت من آدم إلى نسله في قوله:

[لأنَّنا جميعاً خُطاة من خلال عصيان آدم ... فالطَّبيعة البشريَّة احتضنت مرض الخطيئة من خلال عصيان إنسان واحد هو آدم. وبهذه الطَّريقة أصبح الكثيرون خطاة].

وهذه الخطيئة التي يشير إليها هنا، ليست هي الخطيئة الفعليَّة، إلاَّ أنَّه في ذات الوقت لم يشر إلى اسمها بـ ''الخطيئة الجديَّة''، مكتفياً بالقول: إنَّه بعد أن صار لنا نفس الطَّبيعة البشريَّة السَّاقطة، صرنا بالضَّرورة ساقطين تحت ناموس الخطيئة.

لذلك فإنَّ الشَّرق المسيحي وإنْ لم يُنكر أنَّ الإنسان مولود بالخطيئة لأنَّه من ذات الطَّبيعة البشريَّة الفاسدة التي سقطت بالعصيان، إلاَّ أنَّ تعبير ''الخطيئة الجدَّية'' أو ''الخطيئة الأصليَّة''، في ذاته، لم يكن يعرفه الشَّرق المسيحي، لكنَّه نتاج اللاَّهوت المسيحي الغربي.

أمَّا أوَّل رد فعل في الشَّرق عن تعبير ''الخطيئة الجديَّة'' فكان في القرن السَّادس حين أقرَّت الكنيسة الآشوريَّة في سنودسها (مجمع أساقفتها) الذي عُقد سنة ٥٩٦م بعدم وراثة المولود الجديد للخطيئة الجدَّية، وهو ما دفع كنيسة روما لأن تتَّهم كلَّ كنيسة لا تعترف بوراثة الخطيئة الجدَّية، أنها واقعة في خطأ البيلاجيَّة[٨].

لقد كان للقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) مفاهيمه الخاصة والتي تأثَّر بها الغرب المسيحي تأثُّراً واسع النِّطاق. فهو الذي قرَّر اعتماد قانونيَّة سرِّ المعموديَّة إن تمَّت باسم المسيح، أو باسم الثَّالوث على حدٍّ سواء، وأنَّ المعموديَّة تكون صحيحة متى تُمِّمت بموجب مراسيمها الصَّحيحة، حتى ولو كانت على يد هراطقة. وتمسَّك برأيه بأنَّ الرُّوح القُدُس يُنتج في المعموديَّة فعلاً مستقلاً

الكاثوليكيَّة حتى العصور الوُسطى - أغفلت ذكر الموت في الجزء الثَّاني من رومية (١٢:٥)، وتحقَّق فيما بعد أنَّه بينما أنَّ كلمة ''الموت'' في اللُّغة اليونانيَّة هي في صيغة المذكّر، فإنَّ ''الخطيئة'' هي في صيغة المؤنَّث، ممَّا يؤكِّد أنَّ الجزء الثَّاني من النَّص المذكور، لا يتحدَّث عن الخطيئة بل عن الموت ... الخ.

[7] *PG* 74, 788D-789B.

[٨] بلاجيوس هو راهب بريطاني المولد، ترهَّب في أواخر القرن الرَّابع الميلادي، وعاش في روما، وكان يؤكِّد في تعليمه على الجهاد البشري، دون لزوم من مساندة النِّعمة لتكميل خلاص الإنسان، وقد انشغل القدِّيس أغسطينوس بالصِّراع معه.

لنعمة تقديسيَّة تختِم روح المعتمد، ليُصبح ملكاً للثَّالوث، ويظل هكذا حتى ولو ارتدَّ عن الإيمان، كالختم الملكي الذي يبقى على العُملة، ويسمح للنَّفْس المسيحيَّة أن تظل مميَّزة، حتى وإن كانت في الجحيم.

هذه هي بعض تعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة عن سرِّ المعموديَّة والتي استقرَّت بقوانين في مجمع ترنت Trent (١٥٤٥-١٥٦٣م)، وهو المجمع الذي ركَّز على حقيقة أنَّ المعموديَّة ليست علامة نعمة فحسب، لكن هي بالفعل تحوي هذه النِّعمة، وتمنحها لأولئك الذين لا يضعون عوائق قبالتها، وهي بالحري (أي المعموديَّة) أداة يستخدمها الله لتبرير غير المؤمنين.

ثم عادت الكنيسة الكاثوليكيَّة سنة ١٩١٨م لتسن في قوانينها (٧٣٧-٧٧٩)[٩] تشريعاً جديداً بخصوص المعموديَّة.

وفي سنة ١٩٦٩م تمَّ وضع كتاب جديد لترتيب المعموديَّة، ليصبح هو مرجع الممارسات الحاليَّة للمعموديَّة[١٠]. وفي سنة ١٩٧٢م أضافت تعليمات جديدة لمعموديَّة البالغين.

ثمَّ عادت لتُصدر سنة ١٩٩٣م كتاب ''التَّعليم المسيحي'' Catechism لتصحِّح به كثيراً من تعاليمها السَّابقة، معطية أهميَّة قُصوى للعودة إلى فكر آباء الكنيسة الشَّرقيَّة الذين كتبوا باليونانيَّة إلى جانب الذين كتبوا باللاَّتينيَّة أيضاً، فعدَّلت كثيراً من المبادئ التي نادى بها أغسطينوس، والتي - بحسب تعبيرها - لم تعُد تناسب العصر!

---

[9] *Codex Iuris Canonici* (1918).
[10] *The Ordo Baptism Parvulorum*.